المصاديق الاستدلالية لأحقية بيعة الغدير في التعبير القرآني
- قراءة بمنطق تحليل الخطاب-

ا.م.د. سيروان عبد الزهرة الجنابي
كلية الفقه/جامعة الكوفة

توطئة:

إذا كان التعبير الإلهي المقدس يمثل في إحدى منطلقاته الاعتقادية وأسسه المنطقية الفيصل الأصل للقطع فيما يُختَلفُ فيه والمعتمدَ الأجلى لحسم ما تتباين فيه الوجهات وتتغاير به التوجهات فإنَّه يمكن أن يقال بأنَّ ما يصدق به حقاً من مضمون استدلالي ودلالة مشفوعة بالحجة الصحيحة يعد إبلاغاً حاسماً وتكليفاً مفروغاً من النقاش فيه؛ إذ لا يسع الشك ان يتسرب إليه أو يترك مجالٌ للتردد أن ينتابه والحال هذه؛ ذلك بان الإشارات الدلالية في مضامين السياقات القرآنية إذا ما تواردت في غير موضع على محور معنوي موحَّد فإنَّه لابد من الإقرار - تأسيساً على هذا التوارد الاصراري- بانَّ هذا المحور المضموني أو ذلك الحيز المعنوي هو الأولى بالإتباع والأمثل بالاقتداء؛ بل هو الحجة الأصل التي لا يمكن صدعها أو إعادة النظر فيها أو إعادتها إلى النظر تارةً أخرى، لأنَّ الإجماع على مضمون توحيدي معين في النصوص القرآنية يفضي بالمتلقي إلى نتيجة محسومة لا مناص منها.

من هنا نقول إنَّ هناك جملة من الإشارات الدلالية والإمارات النصية اللاتي وردت في التعبير السماوي المعجز تعمل متعاضدة للتنصيص على ثبوتية الأمر للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بأنَّه الأمثل بالإتباع بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لتوافر مجموعة من الصفات وجملة من المواصفات التي تؤهِّلُه إلى هذا المنصب القيادي وترشحه لاحتلال الاعاضة المكانية بعد الرسول الأعظم بين المسلمين؛ لأنَّ القاعدة العقلية تنص بما لا يقبل الجدل بأنَّ الأعلم والأجدر هو الأولى بالقيادة والأحق بالانقياد إليه وله دون غيره، بهذا نقول إنَّ البنائيات النصية – على وفق منطق الإشارات- في التعبير القرآني المقدس قد أسهمت بكليتها في بناء دلالة الأحق بالخلف بعد رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه)؛ من هنا تجلَّت فرضية هذا المسعى العلمي تلك الفرضية التي نعمل مقاربة على استكناه حقيقتها من الإشارة القرآنية عن طريق توظيف المنهج الموضوعي في تفسير النص القرآني؛ حيث سيجري استقصاء ما سيق في التعبير المقدس دالاً على تملُّك الإمام علي (عليه السلام) لأهلية القيادة وجدارة الإدارة انتهاءً إلى قناعة استدلالية معينة.

إما علة الركون إلى المنهج الموضوعي لإثبات مبدأ هذه الأحقية فيعود إلى أنَّ هذا النمط من المناهج التفسيرية يقوم على أساس وجود مُشكل خارجي سواء أكان عقائدياً أم حكمياً أو اجتماعياً أو غيره، وبناءً عليه يغوص المفسر في النصوص القرآنية المرتبطة بهذا الموضوع في

القرآن الكريم مُلملماً تلك النصوص قارئنا إياها على وفق مبدأ الاستدلال والدلالة للوصول إلى نتيجة متكاملة أو نظرية واضحة المعالم تعدُّ حلاً لذلك المشكل الداعي إلى توظيف هذا النمط من التفسير؛ يقول السيد الصدر إنَّ ((اصطلاح الموضوعية هنا ... بمعنى أنْ يبدأ من الموضوع من الواقع الخارجي من الشيء الخارجي، ويعود إلى القرآن الكريم))[1]، فالمنهج الموضوعي ((يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية فيبين ويبحث ويدرس مثلاً عقيدة التوحيد في القرآن، أو يبحث عقيدة النبوة في القرآن، أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن، أو عن سنن التأريخ في القرآن، أو عن السماوات والأرض في القرآن الكريم، وهكذا))[2] فهو يدور ضمن نطاق موضوع واحد بصرف النظر عن وجود المشكل الخارجي؛ لهذا كان اختيار هذا المنهج موافقاً للنتيجة المعرفية المطلوب تحقيقها من هذا البحث، فلما كان ثمة مُشكل عقائدي يرتبط بمكانة الإمام علي (عليه السلام) ووجوب إتباعه كان من الواجب استعمال هذا المنهج تحديداً غير أنَّ هذا المنهج لا يمكن استعماله منفرداً ما لم يُضم إليه منهج التحليل الخطابي لكل النصوص القرآنية التي ستتمحور على قراءة المشكل الخارجي من منطوق قرآني؛ من هنا سيعمل المنهجان متعاضدين للوصول إلى محصلة مُقنعَة تأخذ بأيدينا إلى حيز الطمأنية من أنَّ أحقية بيعة الغدير وأهليتها لا تكون إلا لعلي بن أبي طالب حصراً، وبناءً على الرغبة الشديدة في تلبية هذا المطلب العقائدي سيقسم هذا الجهد المعرفي على جملة من المباحث هي على النحو الآتي.

المبحث الأول: قراءة دلالية في آية المباهلة:

إذا كان النص القرآني يعدُّ معجزة السماء الخالدة؛ فإنَّ كلَّ ما ورد فيه من مضامين خطابية تعد صادقة جدية الارادة على زجه الاطلاق؛ وذلك تأسيساً على صفة منشيء النص من جهة وسمة ذلك الخطاب من جهة أخرى – أي الإعجاز الدائم-؛ من هنا نقول إنَّ الإمام علي (عليه السلام) هو نفس الرسول الأعظم بناءً على قوله تعالى ((فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ))[3] فعند التأمل في النص الكريم نجد أنَّ هناك جملة من الإسهامات البنائية في الآية قد أثبتت أحقية الإمام بالرسول الكريم وهي على النحو الآتي:

---

[1] محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية: ٢٣.

[2] م.ن : ١١، وينظر: محمد علي رضائي: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن:٣١٠.

[3] سورة آل عمران: ٦١.

١- قدم النص ذكر الأبناء في قوله تعالى (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) وأراد بالأبناء في هذا الموضع الحسن والحسين (عليهما السلام)[٤]، ولما كان النص حريصاً على حفظ ديمومة الإسلام قدم ذكر الآبناء قبل غيره، ذلك بأنهما الامتداد الأمثل لرسول من اجل إتمام مهمة استمرارية دين السماء فهم خلفاؤه وقادة أُمته من بعده؛ لذا وجب أن يُباهلَ بهم النصارى لأنَّهم جزءٌ من كينونة الرسالة المحمدية وامتدادٌ دائمٌ لها؛ ولهذا عبر عنهم بإضافة الضمير (نا) إليه شخصاً في قوله (أبناءنا)؛ إذ اسند الرسول بنوة الأئمة إلى نفسه صراحةً؛ وهذا يشير على وجه التصريح بان أمير المؤمنين (عليه السلام) هو ذات الرسول الأعظم؛ لأنَّه لما نَسَبَ صلوات الله عليه أبناء علي إليه فان ذلك يدل على إيمانه المطلق بأنَّ علياً هو نفسه من ناحية وبأنَّه هو الأولى من بعده في صيانة كيان الدين من ناحية أخرى، وإلا ما إلزامُ إسناد أبوة علي للحسن والحسين إلى ذاته الزكية صلوا الله عليه، فلو قلت لشخص ما مشيراً إلى أبنائه هؤلاء أبنائي فانه يستلزم بالحتمية إيمانك شخصياً بتوحُّد الماهية بينك وبين الأب المشار إليه من حيث النسب والصفات والدرجة المعتقد وإمكان الإنابة؛ بهذا نستبين أنَّ إسناد الرسول صفة الابوة اليه بدلاً من علي لدليل حاسم على انه مؤمن بأنَّ علياً ينوب عنه؛ بل في هذا الخطاب تشريفٌ لعلي ورفعٌ من شأنه؛ لان الرسول في هذا الموطن هو الذي أناب نفسه عن علي لا العكس؛ وبهذا يكون قبول العكس او تحققه من باب الأولى عقلاً، ولما كانت مقولة الرسول وحياً يوحى؛ إذ يقول سبحانه بشأن الرسول الكريم ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ❖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)) كان الإيمانُ بالنيابة أمراً لا مناص من البت فيه البتة.

٢- إنَّ تقديم لفظ الأمر (قل) في صدر الآية الكريمة لدليل قطعي على أنَّ هذا المقال صادر من الذات العليا - الله سبحانه وتعالى - على سبيل التكليف الإلزامي؛ لأنَّه المناط الدلالي لهذا النص متعلقاً بمنطق عقائدي هو من الأهمية بمكان ما يدعو إلى الإلزام التشديدي على الرسول وهو الإبانة بأنَّ الدين الإسلامي هو ارقي الأديان وأكملها ويجب اتباعه من جهة، والتنصيص على أنَّ علياً وأبناءه هم خلفاء الرسول ونوابه من جهة أخرى، فلما كان الأمر على هذا القدر من الاهتمام قدَّم سبحانه آمراً بـ (قل) فألزم الرسول هذا الإبلاغ وجوباً؛ بهذا يعد منطوق الآية واجباً اعتقادياً وتكليفاً سماوياً يجب الركون إليه والتسليم به لا محالة، وتأسيساً عليه نستدل على أنَّ الرسول وإنْ كان لا ينطق عن الهوى غير أنَّ مقولته للنصارى بنص هذه الآية لم تكن من عنده البتة؛ بل هو تكليف الهي واجب الإبلاغ منه والإلزام للآخر بدلالة (قل) بابتداء.

---

[٤] ينظر: البغوي: تفسير البغوي: ٤٨/١، والبيضاوي: تفسير البيضاوي: ٤٦/١، وابو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٤٦/٢.

وسند هذا الإلزام إتماماً لنص الآية هو قولُهُ صلوات الله عليه: ((إنِّي تاركٌ فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي وإنَّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض))[٥].

٢- قرينة تعبيره عن الإمام علي (عليه السلام) بأنَّه نفسه الزكية وذلك بلازم إضافة الضمير (نا) إلى لفظة (أنفس) في قوله (وأنفسنا)[٦]، فلو لم يكن الإمام علي (عليه السلام) هو نفس الرسول من حيث اتحاد خصوصية الماهية واتفاق خصوصية المهمة الأدائية بلحاظ الامتداء مع الاحتفاظ بالمائز الرُّتَبي في طبيعة التكليف الوظيفي، ما عبر عنه سبحانه بهذه الحيثية الخطابية الرائعة، وعليه لابد من نقول – والحال هذه- من أنَّ الأئمة هم أبناء الرسول لأنَّهم منحدرون من الإمام علي (عليه السلام) نسباً والذي هو نفس الرسول الأعظم؛ فهم أبناء الرسول نفساً والرسول أبوهم تَحقُّقَاً باتحاد الماهية بينه وبين الإمام علي (عليه السلام)؛ إذ نقل عن: ((جابر بن عبد الله {رضي الله عنه} قال: سمعت رسول الله {صلى الله عليه سلم}، يقول لعلي: يا علي؛ الناس من شجر شتى و أنا و أنت من شجرة واحدة))[٧].

٣- دلالة الإضافة في لفظة (ونساءنا) فلما كانت فاطمة (عليها السلام) هي نساء النبي وأهله استلزم القول من هنا بأنَّ أبناءها جميعًا هم ابناءُ النبي الأكرم، وإنَّ الرسولَ وعلياً يتناوبان المكانة من حيث الامتداد النسبي للأبناء، فالتعبير عن فاطمة بأنَّها نساء النبي دليل صريح بأنَّ أولادها هم أولاد النبي باعتبار المرجعية، وتأسيساً عليه ينكشف لنا الداعي الذي دفع النبي لأنَّ يسند لنفسه نسبة الأبناء والنفس والنساء؛ إذ العلة في ذلك تكمن في أنَّ هؤلاء هم أهلُ بيت نبوته؛ ولما كانت المباهلة مع نصارى نجران تقتضي أن يثبت الرسول صدق دعوته السماوية وبأنَّه مبعوثٌ من الله سبحانه فعلاً؛ وَجَبَ أن يأتيَ بكلِّ ما يثبت كينونة الرسالة ويمت بصلة وثيقة إليها؛ ولهذا جاء بعلي نفسه وفاطمة نساءه والأئمة أبناءه؛ لأنَّهم يمثلون الرسالة كينونةً والامتداد الأصل للرسول بعد رحيله، والدليل على أهمية هذا الموقف أنَّ الخطاب الإلهي عبر عن النسبة إلى الرسول كلها بضمير الجمع (نا) وهذا الضمير يمثل الرسول الأكرم؛ ومن دواعي الخطاب العربي وخصوصيته الدلالية في استعمال الضمائر انه لا يُعبِّر عن المفرد بضمير الجمع إلا لزيادة الأهمية وجلالة الموقف وقوة تأكيد مضمون الحديث والحدث معاً، ولما كانت المباهلة على درجة عالية من الحرص على تحقيق إثبات النبوة إلى الرسول وتَحقُّقِ صدق دعوة الناس من السماء

---

[٥] ابن حنبل: المسند: ٣/ ١٤، و٣/ ١٧، وينظر: الحاكم: المستدرك: ٣/ ١٦٠، والدارمي: سنن الدارمي: ٢/ ٥٢٤، والطبراني: المعجم الكبير: ٣/ ٦٥.

[٦] ينظر: البغوي: تفسير البغوي: ٤٨/١، والبيضاوي: تفسير البيضاوي: ٤٦/١، وابو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٤٦/٢.

[٧] الحاكم: المستدرك: ٢/ ٢٦٣.

على لسان النبي الكريم جرى التعبير بضمير الجمع لذلك؛ بهذا نفهم أنَّ دلالة صياغة المفرد في الضمير على هيأة الجمع تتفق تماماً مع دلالة إضافة الأئمة وعلي وفاطمة إلى الرسول بوصفهم سمة لا تنفك من ماهية الأداء الرِّسالي للرسول الأكرم.

وقد يشير الضمير الجمعي (نا) إلى دلالة أخرى غير دلالة الاهتمام والتعظيم وهي دلالة المشاركة بين الرسول الأعظم والإمام علي (عليه السلام) وأنَّه خليفته من بعده – وهذه الدلالة هي الأرجح فيما يحسب الباحث-، فإحالة الضمير (نا) في هذا الموضع تكون للرسول ولعلي في وقت معاً؛ لأنَّهما متحدان في الماهية؛ فقوله (أبناءنا) يريد به أبناء علي والرسول، وقوله (أنفسنا) لأنَّ نفهسَم واحدةٌ مُتحدةٌ موحَّدةٌ، وقوله (نساءنا) لأنَّ فاطمة هي نساؤهم، فأما علي فباعتبار الزوجية وأما الرسول فباعتبار الامتداد النسبي من حيث الأبناء بلحاظ أنَّ ابناءها هم أبناءُ الرسول؛ إذ لا خلف للرسول من الأبناء؛ من هنا يكون أبناء فاطمة هم أبناءه صلوات الله عليه لأنَّهما الامتداد النسبي والمكاني الأمثل للرسول؛ بهذا يظهر أنَّ الضمير (نا) هو ضمير مشترك الدلالة يتشاطره الرسول وعلي في آن معاً،وهذا يثبت أنَّ علياً هو أولى بالرسول وان هذه الآية تمثل مصداقاً اشارياً واضحاً يثبت أنَّ الغدير ما هي إلا نتيجة تحصيلية للمضامين البيانية لهذه النصوص السماوية المقدسة، فثمة تمهيدٌ وتهيئةٌ لمصداق بيعة غدير خم، ولم يكن الأمر مفاجأة لأي احد من المسلمين البتة؛ بل هو أم متوقع الحدث لا مجال للموارية فيه مطلقاً.

المبحث الثاني: قراءة دلالية في آية الولاية:

إذا كان النص القرآني يتفاوت في بيان دلالاته من الخفي إلى الجلي ومن الترميز إلى التصريح من الإبهام إلى الوضوح فإنَّه يمكن أنْ نقرر بأنَّ الإشارة الدلالية إلى مصداق بيعة الغدير للإمام علي (عليه السلام) إذا كانت قد وردت في نص آية المباهلة على سبيل الترميز فإنَّها قد وردت بمضمون اجلى تصريحا وأشد بيانا في آية الولاية؛ حيث يقول سبحانه ((إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ))[٨] وإذا ما حاولنا تقريب مضامين هذا النص الكريم بمنطق تحليل الخطاب اللغوي فانه بعد التأمل والنظر في النص المقدس سندرك بان الله تعالى قد صاغه بأجود لغة وأسسه على أروع قاعدة لضبط المعنى إذ بنى الدلالة بحثية غاية في بيان جماليات الخطاب من جهة وترسيخ أحقية تلك الدلالة واستظهارها من جهة اخرى، إذ إنَّ أول ما يشد انتباهنا ويوقد أذهاننا هو التساؤل عن داعي تصدير النص بلفظة (إنما) فهذه اللفظة تدل على معنى الحصر والتخصيص –على وفق المنظور البلاغي والنحوي- لانَّ المنطق المضموني لـ (انما) والوظيفة الأساسية لها في الخطاب هي أداء مهمة تضييق الدلالة وحبسها في مجال منفرد، إذ تعمل على إعاقة المنفذ الذهني من أنْ يُمارسَ

[٨] سورة المائدة:٥٥.

على ما بعدها -من جملة- فتح باب التصورات المضمونية أو الاضافات الحدسية، فثمة فارقٌ بين قولك: (أنما زيدٌ صادقٌ) بزيادة (إنما) على الجملة، وقولك: (زيدٌ صادقٌ) بتجرد (إنما) منها، والفارق ظاهر بيِّن، فبمجرد أنْ تقرأ العبارتين قراءة دلالية واعية فانك ستدرك البون بينهما، فالجملة الأولى تنص على حصر (زيد) في صفة الصدق حصراً من دون أنْ ينصرف ذهن المتلقي إلى إضافة احد آخر تصدق عليه صفة اصدق غير (زيد)، وهذه الدلالة الانحباسية التي دعت لأن يكون زيد صادقاً ولا يكذب ابداً منشأوها الوجود الكياني لـ (إنما) في بداية الجملة.

على حين أنَّ العبارة الثانية (زيد صادقٌ) لا تعدو أن تكن إخباراً ابتدائياً ينص على أنَّ زيداً يتمتع بصفة الصدق غير أنَّ هذه الصفة قد لاتكون ملازمة له على الدوام، كما عبر عن هذه الملازمة وجود (إنما) في الجملة الأولى، ولكن حينما نسحب كلامنا هذا لتطبيقه على الآية الكريمة سنلحظ أنَّ النص المقدس وإن كان قد ابتدأ بـ (إنما) صدارةً بيد أنَّ حال مختلف من حيث تراتبية الألفاظ فقوله تعالى (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ) يختلف من حيث الترتيب اللفظي عن قولنا (إنما زيد صادق) لأنَّ النص المقدس استعمل حيثية تقديم الصفة وتأخير الموصوف؛ إذ نجد أنَّ الله سبحانه قد قدَّمَ لفظة (وليكم) وأخَّرَ لفظة الجلالة (الله) على حين أنَّ قولنا (إنما زيد صادق) قد تقدم فيه الموصوف (زيد) وتأخرت الصفة (الصدق)، ان لتقديم الصفة (وليكم) في النص الكريم له اثر بالغ في ترسيم الدلالة الحصرية لدى المتلقي بحيثية أوثق مما لو قدَّمَ سبحانه لفظ الجلالة (الله) على الصفة (وليكم)، وعلة ذلك تكمن في أنَّ تقديم الصفة على الموصوف تمثل وجهاً ثانياً من وجوه الحصر وتوكيد المعنى وتخصيصه، فقولك (إنما زيد صادق) يباين في قوة الدلالة واثبات الصدق لزيد من قولك (إنما الصادق زيد)؛ وإن اتحدت العبارتان بوجود (إنما) في صدارتيهما، ذلك بان العبارة الأولى تدل على حصر (زيد) الموصوف في صفة (الصدق) فزيد صادق دائما وان هذه الصفة ملاحقة له وملازمة إليه على وجه الديمومة، ولكن يمكن أن يكون غير زيد صادقاً ايضاً، على حين أنَّ قولك (أنما الصادق زيد) فانك تجعل بهذا التقديم صفة الصدق محصورة في زيد وحده فحسب دون أي شخص آخر وهذا المعنى أرصن وأوثق من سابقه لإثبات صدق زيد فحسب؛ وأنَّ الصدق له وحده دون الاخرين على وجه الاطلاق، لأنَّكَ بهذا التركيب قد عززت صفة الصدق في زيد مرتين مرة بـ (إنما) وأخرى بالتقديم.

تأسيساً على هذا العرض نقول إنَّ تقديم (وليكم) في الآية الكريمة على (الله ورسوله والذين آمنوا) يقوي من ترسيخ الدلالة في الذهن ويثبت أنَّ هذه الصفة (الولاية) هي حصراً للمذكورين بعدها (الموصفين) فقط، فهؤلاء هم الأولياء وحسب وان صفة الولاية مختصة بهم على سبيل الانطباق الحصري ولا تسري لغيرهم البتة على مدى الدهر.

ونجد أنَّ ترتيب الذكر في الولاية قد ورد على أساس الأمثل والأوجب فبدأ سبحانه بنفسه؛ لأنَّه الخالق الأوحد الذي يملك كل شيء ويدين له كل مخلوق بالعبودية والطاعة اذا ما عرف الحق واهتدى إلى السبيل، ثم عَطَفَ على نفسه لفظ (رسوله) (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنَّه خليفته في الأرض والداعي إلى شريعة السماء فلما كان خليفة الله وحامل لواء توحيده والمتحدث بلسان إعجازه وآخر مبعوثيه إلى الإنسانية وأكرمهم إجلالاً وأقدسهم مكانةً؛ كان من الأولى أن يرد بعده مباشرة في الترتيب الولايتي، ثم ختم سبحانه الولاية بعد الرسول بقوله (والذين آمنوا) وهم الفئة الثالثة والمورد الأخير للولاية بعد الله تعالى أولاً ورسوله ثانياً؛ بيد أنَّ هذه العبارة تحتمل الكثير من القول؛ ذلك بأنَّ الاسم الموصول يدل على العموم مضمونياً بإجماع علماء الأصول وبناءً على هذا المدلول يكون المعنى أنَّ جميع الذين آمنوا سيكونون أولياء؛ فللمؤمن أن يتولى أخاه المؤمن فيأتمر بأمره وينتهي بنهيه وعليه أن يطيعه في كل شيء، وكذا الحال للشخص المُطاع (المؤمن) فعليه أيضاً أن يطيع المؤمن الذي يتولاه فيأخذ ما يأمره به ويتجنب ما يحضره عليه، وإذا كانت الحال هكذا سائغة، فيمكن القول إنَّ المؤمن له أن يتولى نفسه فيفعل ما يره صالحاً ويترك ما يراه لايتفق مع الصواب، وبهذا فإن إبقاء الدلالة على مستوى العموم بلحاظ الاسم الموصول سيدخل المتلقين والناس معاً في الشبهة والاضطراب؛ إذ ليس من المنطق العقلي أن يتولى المؤمن أخاه المؤمن كلٌّ بحسب ما يهوى، وإلا لكن الأمر بالولاية لايحدُّهُ شرطٌ أو يقيدهُ ضابطٌ؛ لأنَّ تدخل العموم بهذه الكيفية سيورث الإبهام في فهم المتلقي؛ ذلك بأنَّ الله تعالى قد ساوى بين ولايته وولاية رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنَّ الرسول هو خليفة الله والتشريعي للخليقة على وفق الأسس الإلهية المنزلة إليه، حتى أنَّه تعالى وصفه بقوله ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى))[٩] وقال في موضع آخر ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ))[١٠] فندرك من هنا إنَّ الله تعالى قد خصَّهُ بالعصمة وعدم الوقوع في حيز الشبهة والخطأ ولهذا أمرَ الله سبحانه الناسَ باتباعه ابتاعاً كاملاً بقوله ((وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا))[١١] ووثق المعنى في مورد آخر بقوله ((النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ))[١٢] والولاية هنا صيغت على زنة (افعل) التفضيل (أولى) للدلالة على أنَّ الرسول اعلى درجة من ولاية المرء على نفسه وأولى بها منه وان هذه الولاية مطلقة لأنَّه تعالى قد ذكر عبارة (من أنفسكم) فحسب دون ذكر لمتعلق ترتبط به مسألة الولاية دون غيرها، فلما حذف دل على أنَّ الولاية مطلقة في كل المتعلقات؛ فإذا كان الرسول له الولاية على المرء أكثر من ولاية المرء على نفسه كان

---

[٩] سورة النجم: ٣.

[١٠] سورة القلم: ٤.

[١١] سورة الحشر: ٧.

[١٢] سورة الاحزاب: ٦.

بهذا احرص على ذلك المرء من نفسه فتكون له الولاية المطلقة عليه بناءً على هذا المنطلق.

إذن إذا كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) معصوماً وقد أمر سبحانه الناس باتباعه ابتاعاً مطلقاً ومنحه الولاية على الناس كان من باب الاوجب أن يكون المولَّى بعده أن يتسم بسماته مقوماته ذاتها حتى يكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ وهذا لا ينطبق على كل مؤمن وإلا لكانوا جميعا أولياء ولانجد من سيتولاهم؛ لهذا أوضح سبحانه المراد بقوله (الذين يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة) غير أنَّ قاعدة العموم مازالت سارية حتى هذا التخصيص البدلي لأنَّه متصدر اسم موصول أيضا والموصول من دواعي القول بدلالة العموم في الخطاب مطلقاً فكل مؤمن لابد له من أن يقيم الصلاة ويأتي الزكاة؛ غير أنَّ الله سبحانه لم يترك فضاء الدلالة سائحة على مستوى التعميم؛ بل خصَّصَهُ لتقع الحجة على المتلقي ويُلزم بها وذلك بقوله (وهم راكعون)؛ إذ وردت هذه الجملة على هيأة الحال فـ ((قوله تعالى: وهم راكعون، حالاً من فاعل (يؤتون) أي يؤتون الزكاة في حالة ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارعة إليه، وقد أطبق المفسَّرون وتواترت الأخبار من الخاصة على نزول الآية في حقِّ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) حين سأله سائل، وهو راكع في صلاته فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه))[١٣] من هنا نجد أنَّ الموصول العام مُخصَّص بالحال فدلَّ على أن المراد هو الإمام علي (عليه السلام)، فأبان سبحانه بها من تقع عليه الولاية تخصيصاً بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فهو الولي بعد الرسول الأعظم؛ والذي دعا إلى القول بهذا هو حرف العطف (الواو) الذي عطف الاسم الموصول على لفظة (رسوله) ذلك بان العطف دلالته الإشراك بالحكم؛ فلما كان الحكم هو الولاية لله ولرسوله دخل الإمام علي بعامل العطف بالواو في نطاق إلزام الولاية له من الناس مطلقاً، ذلك بأنَّ المعطوفات جميعاً في هذه الآية الكريمة تؤدي وظيفة الخبر للمبتدأ (وليكم) فكل من المتعاطفين على مستوى واحد من الولاية مع الاحتفاظ بالفارق المكاني والرُّتبي، وفي نهاية المطاف يكمن أنْ نستنتج جملة من الثمرات الاستدلالية على ولاية الإمام علي (عليه السلام) هي على النحو الآتي:

١- إنَّ في الآية الكريمة تنصيصاً حصرياً على أنَّ الإمام علي (عليه السلام) هو خليفة الله بعد رسوله الكريم؛ ولشدة أهمية ضبط نطاق الولاية تصدرت الآية بدلالة الحصر بـ (إنما) وختمت بدلالة الحصر أيضاً بالجملة الحالية (وهم راكعون)، وهذا يثبت بأنَّ الولاية لا تغادر المذكورين بين قطبي دلالة الحصر ولا تكون لغيرهم البتة.

٢- إنَّ الجملة الاسمية (إنما وليكم) وما بعدها هي جملة إخبارية المبنى إنشائية المعنى؛ لأنَّها تشير

---

[١٣] شبر: الجوهر الثمين: ٢/ ١٨٨ وينظر: الطوسي: التبيان: ٥٥٨/٣
والزمخشري: الكشاف: ١/ ٦٨٢ والرازي: التفسير الكبير: ١٢/ ١٨
والبحراني: البرهان: ٣١٥//٢ ومرتضى الكاشاني: ١/ ٢٩٩ والفيض الكاشاني: المعين: ٢/ ٤٤

إلى مضمون الأمر الإلزامي، فالولاية حكمٌ عقائديٌّ صادرٌ من الذات العليا واجب الأداء ولا محيص أو مجال للحيود عنه أو التنصل منه مطلقاً، ونحسب أنَّ بناء الجملة على الاسمية لإفادة معنى الأمر قد جاء ليزيد من قوة الإلزام للمتلقي لأنَّ العبارة بخبريتها صياغةً توحي بأنَّ هذا الحكم قد صدر من الذات الإلهية منذ زمن بعيد وسبحانه الآن في صدد الإخبار عنه لا أكثر فكأنَّه قد اخذ مفعوله حكماً وأمراً وبات شأناً مَفروغاً منه والله سبحانه يخبر عنه في الوقت الحالي فحسب.

٣- إنَّ دلالة الولاية في قوله (إنما وليكم الله) تعد من الأفعال الانجازية التي تتحقق بمجرد النطق بها، فهي أشبه بقول القائل (بعت) لمن يريد عقد صفقة مع المشتري؛ إذ يُبرَم البيع بمجرد نطق هذه المفردة، وكذا الحال لمن يرغب في أنْ يعقد على امرأة ليتخذها زوجة له على سنة الله ورسوله فإنَّ تلك المرأة بمجرد أنْ تنطقَ لفظة الموافقة فإنَّ العقد ينعقد ويتحقق الزواج وتغدو زوجة لذلك الرجل، والحال ذاته في هذا النص الكريم فبمجرد انطلاق لفظ الولاية يتحقق معناها سلطةً وقيادةً للمذكورين جميعاً، فإذا ما جاء صاحب سلطة عليا وخاطب جيشاً كبيراً بقوله: (فلان هو قائدُكم) فكأنَّه بهذا عقد له لواء القيادة عليهم وأصبح كلامه هذا فعلاً انجازياً واقعياً لا مجال لتركه أو العدول عنه البتة، وبناءً عليه نقول إنَّ عبارة الولاية في هذه الآية الكريمة تعد من الأفعال الانجازية التي ابرم فيه عقد الولاية والولاء من المتلقين للمذكورين، فهو ليس إخباراً -بالمفهوم النحوي- كما يحسب بعضُهم؛ بل هو أمرٌ انجازيٌّ واجبُ الأداءِ متحققٌ المعنى السلطوي في لحظة نطوق العبارة.

من هذه الاستدلالات جميعاً يتحقق لدينا بما لا يقبل التردد بأنَّ الإمام علي (عليه السلام) هو الولي الأمثل بعد الرسول الكريم؛ لأنَّ ولايته اقترنت بولاية الله ورسوله ولما كانت ولاية الله سلطوية وولاية رسوله تكليفاً تشريعياً وعقائدياً جرى القول بولاية أمير المؤمنين وجوباً بناءً على حتمية الانصياع إلى الولايتين الأوليتين بفعل دلالة الاشتراك الحكمي بالواو العاطفة بين الأولياء جميعاً.

المبحث الثالث: قراءة دلالية في آية التطهير:

إذا كانت القناعة تقودنا إلى القول بأنَّ ثمة علاقة جدلية تواصلية بين الطهارة الداخلية وعلو المرتبة العلمية والمكانية بناءً على ((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ))[١٤] فإنَّه يؤسس على هذا الإقرار بولاية الإمام علي (عليه السلام) حيث يقول سبحانه ((إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً))[١٥] إذ تسالم علماء التفسير بأنَّ الآية

---

[١٤] سورة الرعد: ١١.

[١٥] سورة الاحزاب: ٣٣.

الكريمة قد نزل بأهل البيت عليهم السلام[١٦]، غير أنَّ ظاهرُ الآية أنَّها تدل على نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلك)؛ ذلك بأنَّ موردَ هذه الكلام واقعٌ ضمن سياق الحديث عن نساء النبي فتمام الآية قوله تعالى ((وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً))[١٧] وعلل بعض أرباب البيان القرآني بأنَّ ورود التطهير بعد خطاب نساء النبي هنا إنما جاء (((تعليلاً لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداءً من قوله تعالى (يا نساء النبي من يأت منكن)، فإنَّ موقع (إنما) يفيد ربط ما بعدها بما قبلها؛ لأنَّ حرف (إن) جزءاً من (إنما) وحرف (إن) من شأنه أنْ يغني غناء فاء التسبب .... فالمعنى أمركن الله بما أمر ونهاكن عما نهى لأنَّه أراد لكن تخلية عن النقائص والتحلية بالكمالات؛ وهذا التعليل وقع معترضاً بين الأوامر والنواهي المتعاطفة))[١٨].

غير أنَّ هذا التعليل محل نظر وموئل تأمل وإعادة تفكير؛ لأنَّ مسألة القول بتعليل (إنما) غير وارد الاستعمال في سياقات تداول الخطاب العربي البتة؛ ذلك بأنَّ لازمتها المضمونية في الخطاب الكلامي هي الدلالة على الحصر فحسب أكثر؛ فهي حرف يدل على الحصر والتخصيص ولا علاقة له بالتعليل أو السببية مطلقاً، زيادة على هذا فإننا لو قلنا جدلاً بدلالة (إنما) على التعليل؛ فَلِمَ تغيَّر نمط الخطاب ولم يقل: (إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس) ليشير بأنَّ النص مازال خطابه متوجهاً إلى نساء النبي (صلوات الله عليه)، بيد إننا نجد أن منشيء الخطاب وهو الله سبحانه قد عمدَ إلى القول (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) بصيغة المذكر لا المؤنث، ولو كان الخطاب موجهاً إليهن تشخيصاً لما عدل عنهن إلى ضمير آخر؛ والدليل أنَّ الخطاب ليس لهن؛ لأنَّه سبحانه قد أكمل الخطاب لهن بعد هذه الآية بقوله ((وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً))[١٩]، فلماذا أعيد الخطاب إليهن تارةً أخرى، ولو دققنا النظر في مقولة ابن عاشور لوجدنا حلاً لهذا المشكل الدلالي والتردد المحير في تحديد نسبة توجيه الخطاب وهو قوله (وهذا التعليل وقع معترضاً بين الأوامر والنواهي المتعاطفة) فلو سلمنا جدلاً بأنَّ (انما) قد فادت دلالة التعليل في النص -كما يرى ابن عاشور-، فان هذا التعليل معترض وهذا الاعتراض ينفي أن يكون الخطاب لهن تحديداً، لأنَّ التعليل لا يرد في عرض الكلام أي لا يساق كلام ثم يتعرض تعليلُهُ أو سببُهُ ويُواصَلُ الكلام فيما بعد؛ بل

---

[١٦] ينظر: الطبري: تفسير الطبري: ٢٩٤/١٠،
والبغوي: تفسير البغوي: ٣٤٩/١، والالوسي: روح المعاني: ٢٨٤/١٦

[١٧] سورة الأحزاب: ٣٣.

[١٨] ابن عاشور: التحرير والتنوير:٣٣٥١/١.

[١٩] سورة الاحزاب: ٣٤.

التعليل يرد في نهاية الكلام حتى يُبينَ داعي نزول هذا الكلام أو توجيه إلى المخاطب تعييناً، فلا يجوز منطقاً اعتراض السبب بين النتائج، فلا يقال مثلا (أنت منخفضُ العلاماتِ لأنَّك لم تواظب القراءةَ وضعيفٌ من الناحية العلمية) حيث اعترضت العلة أو السبب النتائج والحال يجب أن تكون العلة أو السبب في نهاية مسرد النتائج فيقال منطقاً: (أنت منخفضُ العلاماتِ وضعيفٌ من الناحية العلمية؛ لأنَّك لم تواظبْ القراءةَ) فهذا التركيب هو الذي يحيل المنطوق الدلالي التسلسلي إلى الصواب من حيث بناء المعنى الدقيق في ذهن المتلقي، ولا يمكن أن يقال: (حافظْ على فروضِكَ كي تنجحَ واقرأ جيداً) لان الأصل أن يقال: (حافظْ على فروضِكَ واقرأْ جيدا؛ كي تنجحَ)، وكذا الحال للنص الكريم فورود السبب أو التعليل في سياق الاعتراض ومن ثمَّ تجري تتمة الحديث النتائجي بعد العلة أمرٌ لا يقبله العقلُ والمنطقُ الكلاميُّ السائغُ مطلقاً، من هنا يمكن الوصول إلى أنَّ خطاب التطهير غير موجه إلى نساء النبي مطلقاً.

وثمة أمرٌ آخر يدعو إلى دفع هذا الخطاب عنهن وهو أنَّ إرادة الله سبحانه أينما وردت في طيات التعبير القرآني فإنما يراد منها تنفيذ الإرادة لا الرغبة في تحقيق الشيء فإذا قال سبحانه (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) فإنَّ هذا لا يعني أنَّه يرغب في أن ييسر عليكم الأمور؛ بل إنَّ المبتغى هو تحقيق هذه الإرادة وسند ذلك تحققاً هو تمام الآية حيث يقول سبحانه ما نصه كاملاً: ((شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))[٢٠] فالترخيص بتأجيل الصيام لداعي السفر أو المرض قد تحقق في النص ومن ثمَّ تحققت إرادة الله بالتيسير على الناس بالتبعية دون أدنى شك، وعليه فإنَّ الإرادة متحققة متى ما وردت في النص القرآني منسوبة إلى الله سبحانه، وكذا الحال نفسه في قوله تعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ))[٢١] فقوله{مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} قد تحقق بفعل ترخيصه لمن لا يجد ماءً بأنْ يتيمم؛ من هنا نفهم أنَّ الإرادة إنما هي متحققة في التطهير لأهل بيت النبي لا إلى نسائه ولو كان الكلام موجهاً في نسبة التطهير إلى نساء النبي لم يكن من المفترض أنْ يوجِّه لهن الله سبحانه التحذيرَ واللومَ على بعض الأفعال اللاتي اقترفنها، ذلك بأنَّ التطهير من الذنب متحقق بفعل الإرادة وحيث لا

---

[٢٠] سورة البقرة:١٨٥

[٢١] سورة المائدة: ٦.

تطهير متحقق بسبب التقريع فلا إرادة متحققة بالتطهير؛ بهذا لا تطهير إليهن البتة، وهذا يدل على أنَّ التطهير ليس لهن لأنَّه متحقق إلى أهل البيت بفعل الإرادة المنجزة بمجرد النطق بها منه سبحانه.

فضلاً عن أنَّ المرويات الصحيحة قد أثبتت أنَّ المنصوصُ عليهم ليس نساء النبي؛ بل هم علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)؛ فقد روي ((عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وسلم) {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} في بيت أم سلمة فدعا فاطمةَ وحسناً وحسيناً فجلَّلهم بكساء وعلي خلف ظهره فجلَّلهم بكساء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهلُ بيتي فأذهبْ عنهم الرجسَ وطهرهم تطهيراً، قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وأنت على خير))[٢٢]

وفي رواية أخرى ((عن أم سلمة (رضي الله عنها) أنَّها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} قالت: فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى علي وفاطمة والحسن والحسين (رضوان الله عليهم أجمعين)، فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: إنَّكِ أهلي خير وهؤلاء أهلُ بيتي اللهم أهلي أحقُّ))[٢٣]، وروي الحديث بصيغة أخرى عن عائشة زوج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنَّها قالت: ((خرجَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً))[٢٤]، ومن مجموع هذه الروايات نستدل على أنَّ الرسول قد فسَّر معنى أهل البيت الوارد في النصِّ الكريم بفاطمة وعلي والحسن والحسين؛ فهم أهلُ البيت وعِدلُ القرآن والثقلُ الأمثلُ مع كتاب الله العزيز، ولولا بيانُ السُّنَّة وتفسيرها لهذا اللفظ المضاف لما فُهِمَ مَنْ هُم أهل البيت ولاختلط الحابل بالنابل؛ لهذا بيَّنَ الرسول المعنيينَ في النص، ونصَّ بالفعل والقول على أنَّ المراد بهم هم أهلُ البيت (عليهم السلام) دون غيرهم.

ولابد من إشارة -ههنا- إلى أنَّ ثمة خاطر يحتمل أنَّ يرد في ذهن المتلقي منطوقه أن فعل التطهير في النص الكريم قد جرى بعده المصدر مجرداً والمصدر المجرد بعد الفعل يؤدي مهمة

---

[٢٢] الترمذي: سنن الترمذي: ٣٥١/٥، وابن حنبل: المسند: ٣٣٠/١.

[٢٣] الحاكم: المستدرك: ٤٥١/٢.

[٢٤] مسلم: صحيح مسلم: ١٨٨٣/٤.

التوكيد الحقيقي لحدث الفعل[٢٥]، وهذا يعني أنَّ التطهير هنا دلالته مادية أي تطهير الجسد فحسب، غير أنَّ هذا المصدر التوكيدي لفعل التطهير في الآية الكريمة لم يرد لمجرد التوكيد الحقيقي؛ بل خرج من قيد هذه القاعدة النحوية ليدل على التأكيد المعنوي لا الحقيقي وقد تبنه ابن عاشور إلى هذا الملحظ الدلالي حيث يقول تصريحاً: ((والتوكيد بالمصدر يرجع إلى تأكيد النسبة وتحقيقها... ولا يقصد به رفع احتمال المجاز؛ ولذلك أكدت العرب بالمصدر أفعالاً لم تستعمل إلا مجازاً كقوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)؛ فإنَّه أراد أنَّه يطهرهم الطهارة المعنوية أي الكمال النفسي فلم يفد التأكيد رفع المجاز))[٢٦] مطلقاً كما حَسَبَ ذلك علماءُ النحو؛ لأنَّ الآية لا تحتمل المعنى الحقيقي للتطهير مطلقا وإلا لا منفعة كبرى في تطهير الجسد دون تطهير الروح والنفس حتّى يصلَ المرء إلى أقصى غايات السمو النفسي الذي تبتغيه السماء، باعتبار أنَّ الأنموذج الإنساني الأمثل والاسمى هو وصول الإنسان إلى مرحلة التطهير الروحي، فإذا كان هذا حاصلاً تحققاً في الإمام علي بن أبي طالب وزوجه وولده من بعده فإنَّ هذا يدل بالقطعية على أنَّه (عليه السلام) هو الأمثل بالإتباع بعد الرسول الكريم مطلقاً، يزاد على هذا أنَّه لما كان هناك ارتباط توثيقي بين زيادة المعرفة وتطهير النفس بدليل قوله تعالى ((أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[٢٧] ذلك بأنَّ الذنوب تحجز القلوب عن تحسس دلالات النص القرآني فيغدو العقل والحال هذه ممنوعاً من أن يصل إلى مرادات السماء فلا يقوى على التدبر ولكن لو تطهَّر ونقَّى نفسه من الدنس فإنَّ قلبه وعقله سينفتحان لنيل المبتغى الإلهي في ذلك الخطاب المعجز يقول سبحانه ((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ❖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ❖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا))[٢٨]، بهذا ندرك أنَّ التطهير مرقاة إلى المعرفة التامة والمعرفة التامة مرقاة إلى أهلية القيادة ولا ينالها إلا علي بن أبي طالب حيث يقول فيه الرسول الأعظم ((أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه))[٢٩]، وتأسيساً عليه نقول إنَّ الأمثل معرفةً وعلماً هو الأحرى اتباعاً وقيادة بعد الرسول لا محالة.

---

[٢٥] ينظر:ابن السراج: الاصول في النحو: ١٦٠/١،
وابو البقاء العكبري: اللباب علل البناء والاعراب: ٢٦١/١، و ابن عقيل: شرح ابن عقيل: ١٧٢/٢.

[٢٦] ابن عاشور: التحرير والتنوير: ١٠٦٤/١.

[٢٧] سورة محمد: ٢٤.

[٢٨] سورة الشمس: ٧-٩.

[٢٩] الحاكم: المستدرك: ٣/ ١٣٧- ١٣٨، والطبراني: المعجم الكبير: ٦٥/١١، وروي الحديث بصياغة مناظرة في موضع آخر من مصنفات جمع الحديث الشريف ما نصه: ((أنا دار الحكمة وعلي بابها))، ينظر: الاصبهاني: حلية الاولياء: ٦٤/١.

المبحث الرابع: قراءة دلالية في آية النعمة :

إذا كان النص القرآني ينصُّ في غير موطن فيه على إجلال النعمة وضرورة النظر إليها برعاية وإكرام وإلزام المتلقي بوجوب شكر الله تعالى عليها إعراباً عن الإقرار بفيض هذه النعمة عليه؛ فإنَّه يتأتى القول – والحال هذه- بأنَّ النعمة من الواجب الإقرار بها من جهة ومن المقتضى اتباعها والتمسك بها من جهة أخرى، تأسيساً على مقولته تعالى: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[٣٠] فهذا النص الكريم يقرر قاعدة سماوية لامحيص عنها وهي أنَّ ثمة علاقة جدلية تبادلية بين احترام النعمة والتمسك بها وبين تضييعها وعدم الركون إلى تقييمها؛ ذلك بأنَّ النعمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاستجابة إلى السماء ومطاليبها فمتى ما أنجز المتلقي المطلب السماوي فإنَّ النعمة ستتابع عليه وتنمو، ومتى غادر المطلب فإنَّ النعمة ستُسحَب منه إلى غير رجعة؛ بل ستستبدل بالعذاب والنقمة، فما بالُكَ لو كانت النعمة هي مطلب السماء ذاته؛ نحسب - من هنا- أنَّ الإلزام سيكون مفروغاً منه لأنَّه حتمي الأداء بلحاظين الأول أنَّه مقتضى الإرادة الإلهية من البشر، والآخر أنَّه سمة الإكرام على ذاك المقتضى في الوقت نفسه، فهو السبب ونتيجته من هنا كانت تلبية السبب فرضاً لاستحصال النتيجة، وبالمقابل فإنَّ بقاء النتيجة هو افتراضٌ إلزاميٌّ لحدوث السبب، وفي حال اندماج السبب بنتيجته يغدو الأداء واجباً وإكراماً في الوقت ذاته فكان من باب المفروغ منه أن يراعي المتلقي ذلك الأداء ويتبعه؛ لأنَّه هو المطلب ونتيجته الإكرامية في الوقت معاً، وما هذه النعمة التي تتحد مع مطلب السماء بل تتوحَّد معه ذاتاً إلا ولاية الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)؛ إذ يقول سبحانه من سورة الضحى ((وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ))[٣١] حيث ذهب جملة من علماء البيان القرآني ابتداءً إلى أنَّ شكرَ النعمة هو التَّحدُّثُ بها وإظهارُها للناس[٣٢]؛ عن طريق قضاء حوائج الناس وتيسير الأمور عليهم من خلال توظيف النعمة في تذليل تلك الأمور والعمل على إنجازها بهذه النعمة وبهذا يشكرُ المرءُ نعمةَ الله عليه؛ لأنَّ بذلك تتحقق الغاية التي من أجلها وهبَ اللهُ تعالى للمرء النعمةَ، فالنعمُ خُلِقَتْ لتخدم الإنسان ويفتح بها صاحبُها منافذ الخير لنفسه وللناس معه، ولما كان الخطابُ موجَّهاً في هذه الآية؛ بل في السورة بأسرها إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنَّ ما قاله المفسِّرونَ يصلح أنْ يُقالَ في حقِّ الرسول الأعظم، ويمكن أنْ تُحمَل النعمة ههنا على أنَّها

---

[٣٠] سورة الاعراف: ٩٦.

[٣١] سورة الضحى: ١١.

[٣٢] ينظر: الطوسي: التبيان:٣٧١/١٠، والطبري: تفسير الطبري: ٢٣٣/٣٠، وابن كثير: تفسير ابن كثير:٥٢٤/٤، والالوسي: روح المعاني١٦٤/٣٠

النبوة[٣٣]؛ فهي النعمة الكبرى التي وهبها الله تعالى لرسوله وهذه النعمة تشمل الناس جميعاً تأسيساً على مبدأ التبليغ إليهم؛ من هنا يجب على الرسول إظهار هذه النعمة وبيان دلائلها للناس والحديث عنها استدلالاً وتوثيقاً.

أما إذا ما وظَّفنا منهج التفسير الإشاري في هذا الموضع فإنَّه يمكن أنْ تُفَسَّر النعمة في هذا النص الشريف بأنَّها ولايةُ الإمام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام)[٣٤]؛ فهي النعمةُ التي يدعو اللهُ سبحانه رسولَهُ لأنْ يتحدَّثَ بها ويظهرَها على الناس جميعاً حتّى يعرفوا عليّاً ويتبعوا طريقه طريق الحقِّ الأمثل، ويبدو أنَّ السياقَ العامَ لهذه السورة يوافقُ هذا التوجُّه التفسيري؛ ذلك بأنَّ السورةَ بأسرها قد نزلت تسليةً لنفس الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولعلَّ العلةَ الموثِّقةَ لهذا المعنى الإشاري في النص مُضَمَّنةٌ في سبب النزول فلربَّما يعيننا ذلك السبب على كشف المراد ويُلقي إضاءةً عليه للاسترشاد؛ وسببُ نزول السورة هو أنَّ امرأةً من المشركينَ أقبلت على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن أُرجئ عنه الوحي مدة ليست بالقصيرة، فقالت له: يا محمد، ما أرى شيطانَك إلاّ قد قلاك[٣٥]، نستشف من هذه الرواية دلالة تؤكد أنَّ الآيات مُساقةٌ للرَّدِّ على هذا الزعم وتفنيده واثبات الطمأنينة في نفس الرسول الكريم وتقويته، ولما كان الإمامُ عليٌّ (عليه السلام) هو خليفةَ الرسولِ ومساندَهُ وناصرَهُ كان التبشيرُ به من الرسول وسيلةَ لاطمئنان الرسول الكريم نفسه من أنَّ هذا الدين سينتصر وأنَّه سوف يكون بعدك من يواصل الدرب الصعب ويوثِّق الإسلام حتّى يصلَ إلى أقصى الأرض فلا تحزن يا محمد فما زلت في أول الطريق، وإذا كانت هذه الآيةُ هي خاتمةَ السورةِ فإننا نقول إنَّ مطلعَ السورةِ يؤكدُ هذه الدلالة التفسيرية أيضاً ويعضدُ المعنى المشار إليه في نهاية السورة حيث ابتدأ سبحانه النص السوري بأسره بقَسَمَين وذلك في قوله ((وَالضُّحَى ❖ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى))[٣٦] فنجد أنَّ اللهَ تعالى قد ابتدأ بـ (الضُّحَى) أولاً ثم أردفه بـ (اللَّيْلِ إِذَا سَجَى)، وفي هذا التفاتة رائعة يمكن ربطها بنهاية السورة، فالضُّحَى هو الوقت المبدوء امتداداً من لحظة طلوع الشمس وارتفاعها حتّى الزوال، والليلُ هو الوقتُ المبدوءُ من لحظةِ غروبِ الشمسِ إلى طلوعِ الفجرِ، ولم يتركه سبحانه مفتوحاً؛ بل قيَّدَهُ بالصفة المشروطة بـ (إذا) فحدَّده، وإنَّ عبارة (إِذَا

---

[٣٣] ينظر: الطبري: تفسير الطبري:٢٣٣/٣٠،
وابن كثير: تفسير ابن كثير:٥٢٤/٤، والآلوسي: روح المعاني١٦٤/٣٠

[٣٤] ينظر: اسماعيل حقي: روح البيان:٦٤٠/١٠، ومحمد بن محمد رضا المشهدي:كنز الدقائق:٣٢٤/١٤،
وسلطان محمد الجنابدي: بيان السعادة في مقامات العبادة:٤٦٢/٤.

[٣٥] ينظر القرطبي: تفسير القرطبي:٩٣/٢٠،
والحائري :مقتنيات الدرر:١٦٣/١٢، ومغنية: الكاشف: ٥٧٧/٧ .

[٣٦] سورة الضحى: ١- ٢.

سَجَى) تعني إذا سكنَ وامتدَ ظلامُه[٣٧]، وهذه كنايةٌ عن أشدّ الليل ظلمة، والناظر إلى النصين يجد بينهما تغايراً دلاليّاً فالصلة بين بداية اليوم المتمثلة بالضحى، ونهايته المتمثلة بالليل الساجي هي الضد لدلالة الذكر والحذف فهما وضعان يتميزان فيما بينهما، فوقت الضحى وقت ينغمرُ الناسُ فيه بأعمالهم فهو ميدان المعاش والعمل والوضوح والزحام لهذا لم يُقيِّدهُ بصفة ليكون فيه معنى الابتعاد عن اللهو والرَّاحة والدِّعة وهذا المعنى مفهوم من دلالة الملازمة للفظة (الضُّحَى) على إطلاقها، أما (الليل) فقد قيَّده الله تعالى بصفة السكون وشدَّة الظلام؛ لأنَّ آخرَ الليلِ تسكنُ النفوسُ وتنامُ العيونُ ويفترقُ الناسُ بعضُهم عن بعضٍ فهو زمنُ التَّفردِ مع الله[٣٨].

ومن النظر في القَسَمَينِ نلحظ أنَّ الله تعالى قد ابتدأ بالضُّحَى وهو وقت العمل والشقاء كما هي بداية دعوة الناس إلى الإسلام من قِبَلِكَ؛ فهو أمرٌ شاقٌ وعسيرٌ لايتَّجه إليه الناس بيُسر؛ فكان في لفظة (الضُّحَى) معنى أنَّكَ يا محمد ستواجه النَّصبَ والشقاءَ في تنشئة الدعوة الإسلامية كما يواجه الناسُ الإرهاقَ والتَّعبَ في أعمالهم عند الضُّحَى فغادرَ لفظةَ (الضُّحَى) مُجرَّدةً من دون قيد ليتحمَّلَ الرسولُ (صلى الله عليه وآله وسلم) نظراً إلى حذف المحذوف كثرةَ ما يلاقيه من صنوف المعاندة والنفاق والخيانة؛ وليهيئ نفسه للتقبُّل دون مفاجأة[٣٩]، بيد أنَّه سبحانه أردف هذا الشقاء بالرَّاحة والسَّكينة وذلك بقوله (اللَّيْلِ إِذَا سَجَى)؛ إذ وشجه سبحانه الليل بصفة السجى (السَّكينة) وما تلك السَّكينةُ إلا عليٌّ بن ابي طالب (عليه السلام) فحققَ بذكر الصفة اطمئناناً لتكونَ مقدمة يمحّضُ له معاناته فيها إلى النصر وإنجاز ما حُمِّل به من عبء ثقيل للوصول إلى وضع تسكن فيه نفسه الشريفة وذلك بولاية علي (عليه السلام) خليفةً من بعده على الناس ليطمئنَ عليهم وعلى الإسلام بالمحصلة النهائية؛ ففي القسمين قراءةٌ مستقبليةٌ لمجريات الأمور وصولاً إلى الغاية؛ من هنا كانت نهايةُ السورةِ (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) تتمةً للقسمينِ الأوليينِ في بداية السورة فالنعمةُ هي السَّكينةُ والرَّاحةُ والاطمئنانُ على الإسلام وديمومته وهو النِّعمة الكبرى المتمثِّلة بتنصيب عليٍّ (عليه السلام) وولاية الناس له؛ لأنَّ ولايتَهُ (عليه السلام) هي السبيلُ للخلاص من الضلالة فهو بذلك النعمة الكاملة التي يجبُ أنْ يُحدِّثَ بها الرسولُ الناسَ جميعاً، وان ولايته (عليه السلام) هي الداعي التكليفي للحصول على تلك النعمة فكان التكليف واستحصال نتيجته الإكرامية تندمجان في الأداء المطلوب من المتلقين في وقت معاً، فالمطلب السماوي هو النعمة والنعمة هي أداء ذلك المطلب لا غير، فكم من فضل لعلي بن أبي طالب على الناس عموماً فحتى في تكبده المسؤولية الإلهية وحمله لثقل المهمة

---

[٣٧] ينظر: ابن منظور: لسان العرب:١٤/٣٧٢.

[٣٨] ينظر: الباحث: قراءة دلالية في محذوف سورة الضحى (بحث منشور)، مجلة دراسات نجفية، تصدر عن مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة، العدد الرابع،٢٠٠٥م: ٢٦٩.

[٣٩] ينظر: م.ن : ٢٧٠.

الخلافية نعمة على البشرية حيث قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((النظر إلى وجه علي عبادة))[٤٠]، فليس اتباع الناس له يعد خلاصاً من الوقوع في المعصية أو اجتناباً من الولوج في الخطيئة وصولاً إلى النعيم؛ بل إنَّ في الإتباع نفسه نعمه فضلاً عن استحصاله المأمول، فإذا كانت النعمة واجبة الإتباع وملزمة الحرص عليها كان من الاوجب اتباع علي؛ لأنَّه نعمة السماء العظمى على البشرية جمعاء بلا استثناء.

المبحث الخامس: قراءة دلالية في آية النبأ:

ومن جنس النصوص القرآنية الداعمة لولاية الإمام علي (عليه السلام) هي آية النبأ ذلك بأننا لو قرأناها على وفق منطق التفسير الإشاري فانا سنصل إلى محصلة تشير إلى أنَّ الأحقية هي لأمير المؤمنين (عليه السلام) لا غير حيث قال سبحانه ((عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ❖ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ❖ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ❖ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ❖ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ))[٤١] وعند النظر في بطون المدونات التفسيرية فإننا سنجد أنَّ أكثر المفسرينَ قد فسَّروا لفظة (النبأ) في الآية الكريمة بالقرآن الكريم وقيل المراد به (البعث بعد الموت) فهم مختلفون فيه؛ ذلك بأنَّ الموتَ لا يختلفون فيه لأنَّه أمرُ محسوسُ مشاهدُ أما البعثُ فهو أمرٌ غيبي غيرُ مدركٍ على مشهدِ الواقعِ؛ لذا وقعَ فيه الاختلافُ والتساؤل[٤٢]، ولكي يُمنَحَ المسؤول عنه سمة التفخيم والتعظيم في نفس المتلقي سيق على سبيل السؤال؛ فجاء ((الاستفهام للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة؛ أي عن أيِّ شيءٍ عظيمِ الشأن يتساءلون))[٤٣] فالسؤال ههنا ليس على وجه الحقيقة لأنَّ اللهَ تعالى هو العالم بكلِّ شيءٍ؛ بل تساءل سبحانه في النصِّ بقوله (عَمَّ) للبرهنة على عظم الأمر المسؤول عنه وزيادة أهميته في النفس، ومن الجميل في الصياغة النصِّية لهذه الآية أنَّ اللهَ تعالى قد بنى فعلَ التساؤلِ فيه على زنة (يتفاعلون) وهذه الصيغة تدل على المشاركة ووقوع الفعل من كلِّ واحدٍ منها على الآخر بالتساوي والمشاركة على حدٍّ سواء؛ حيث ترد ((صيغة التفاعل في الأفعال المتعدية لأفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يصير كلِّ واحدٍ من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً))[٤٤] فنلحظ أنَّ هذه الصيغةَ (يتفاعلون) قد أفادت التعددية في صدور فعل التساؤل وهذا ينمُّ عن انشغال المتسائلينَ كليّاً في هذه الأمر فقد نُقِلَ عن

---

[٤٠] الحاكم: المستدرك: ١٥٢/٣، والطبراني: المعجم الكبير: ٧٦/١٠، الاصبهاني: حلية الاولياء: ٥٨/٥.

[٤١] سورة النبأ: ١-٥.

[٤٢] ينظر: القرطبي: تفسير القرطبي:١٧٠/١٩، والطبري: تفسير الطبري:٣٠/١-٢،
والالوسي: روح المعاني:٣/٣٠، والشوكاني: فتح القدير:٥١٠/٥.

[٤٣] الالوسي: روح المعاني:٣/٣٠.

[٤٤] م.ن: ٣/٣٠.

الفراء قوله ((التساؤل هو أن يسأل بعضُهم بعضاً كالتقابل: وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدَّثوا به وإن لم يكن بينهم سؤال))[٤٥]؛ من هنا نستدل على أنَّ هذا الأمر المتساءل عنه على جانب كبير من الأهمية إلى الحد الذي لايفتأ القوم يتساءلون عنه باستمرار فهو محور حديثهم ومناط كلامهم وتفكيرهم؛ و((ذلك يقتضي كون المطلوب مجهولاً فجعل الشيء العظيم الذي يعجز العقل عن أنْ يحيطَ بكُنهِه كأنَّه مجهول؛ ولهذا جاء سبحانه بلفظ (ما) عن النبأ العظيم، ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا وبيَّنه؛ فقال:{عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ}، فأورده سبحانه أولاً على طريقة الاستفهام مبهماً لتتوجه إليه أذهانُهم وتلتفت إليه أفهامُهم ثم بيَّنه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه، كأنَّه قيل: عن أيِّ شيءٍ يتساءلون هل أخبركم به؟ ثم قيل بطريق الجواب:{عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ}))[٤٦] ، نقول إنَّ الله تعالى قد أوضحَ بجلاء مديات الاهتمام البالغ بالأمر المتساءل عنه في الآية؛ ويبدو أنَّ غلبة سمات الاهتمام في النصِّ هي التي دفعتْ المفسِّرينَ إلى تفسير معنى النبأ العظيم بالقرآن أو البعث، لكن يمكن أنْ يُقالَ غير هذينِ المعنيينِ في معنى (النبأ)؛ إذ يمكن أنْ يُشيرَ النبأُ -ههنا- إلى ولاية الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)[٤٧]، فهو النبأُ العظيمُ الذي يتساءلون عن مدى أحقيته بالولاية بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روي عن الإمام الصادق قوله: ((النبأ العظيم الولاية))[٤٨]، وفي موضع آخر وثَّقَ الإمام الصادق (عليه السلام) هذه الدلالة التفسيريَّة بإجابته عن سؤال أبي حمزة، حيث نُقلَ ((عن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: قلت له: جُعِلْتُ فداكَ، إنَّ الشيعةَ يسألونك عن تفسير هذه الآية: {عَمَّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}، قال: ذلك إلي، إنْ شئتُ أخبرتُهم، و إنْ شئتُ لم أخبرهم، ثم قال: لكنّي أخبرُكَ بتفسيرها، قلت: عَمَّ يَتَساءَلُونَ؟ قال: فقال: هي في أمير المؤمنين (عليه السلام)، كان أميرُ المؤمنين (عليه السلام) يقول: ما لله عزَّ وجلَّ آية هي أكبر مني، و لا لله من نبأ أعظم مني))[٤٩].

ولا يخفى ما لهذا الأمر من أهمية عظمى عند الله سبحانه لأنَّ الإمام علي (عليه السلام) هو الامتداد الطبيعي والأمثل بعد الرسول الأعظم؛ إذ لابدَّ لكلِّ نبي مِنْ ولي وخليفة ولما كان الدينُ الإسلامي هو أعظمَ الأديان وأكملها على وجه العموم كان من الواجب أنْ تكونَ مسألةُ الولايةِ بعد الرسول لقيادة هذا الدين محطَ اهتمامٍ وموئلَ تعزيزٍ ورعايةٍ من الله تعالى؛ من هنا يتحقق امكان حمل دلالة (النبأ) على مضمون ولاية أمير المؤمنينَ (عليه السلام) فالكثير قد اختلفوا فيه قديماً وما زالوا؛ لهذا ينبئهم الله تعالى -ههنا- بأنَّهم سيعلمون بأنَّه الحقُّ وأنَّه لامحيص عنه البتة،

---

[٤٥] الشوكاني: فتح القدير: ٥٠٩/٥.

[٤٦] الشوكاني: فتح القدير: ٥٠٩/٥- ٥١٠، وينظر: الالوسي: روح المعاني:٣/٣٠- ٤.

[٤٧] ينظر: الشيرازي: الامثل: ١٩/ ٣٢٢- ٣٢٣.

[٤٨] الشيرازي: الامثل:٣٢٣/١٩، والبحراني: البرهان: ٥٦٥/٥.

[٤٩] البحراني: البرهان: ٥٦٥/٥.

والذي يعزّز هذا المعنى في النصِّ أنَّ جميعَ خطابات النص تتّجه إلى بيان الأمر المتساءل عنه وإظهار عظمته إلى الحدِّ الذي أخفاه الله تعالى من كلامه العزيز إجلالاً له وإكباراً لمضمونه، ونحسبُ أنَّ الولايةَ والنصَّ عليها من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هي أعظمُ نبأ يمكن أنْ يختلفَ فيه الناسُ وحريٌّ بالنص القرآني أنْ يقولَ فيه بأنَّه نبأٌ عظيمٌ، فالتساؤلُ عنه قائمٌ والاختلافُ فيه دائمٌ حتّى يعلمَ المتسائلون أنَّه الحقُّ الأجلى بلا شائبة أو تردد.

الخـاتمـة

بعد طول التأمل ومعاودة النظر في النصوص القرآنية المرة تلو الأخرى من اجل استظهار المصاديق الاستدلالية على أحقية البيعة توصل الباحث إلى جملة من القناعات التي يمكن أن يلخصها عرضاً على النحو الآتي:

١- اتضح لدى الباحث أنَّ النصوص التي كان داعي نزولها الإمام علي (عليه السلام) كلها قد صيغت بحيثيات لغوية ومنهجيات بنائية دالة على ارجحية تولية الإمام دون غيره ؛ ذلك بان توظيف منهج التحليل النصي قد اثبت بما لا يقبل أدنى تأمل؛ بأنَّ الإمام هو نفس الرسول ماهيةً ومكانةً بالتبع ، وبأنه يحمل مشروعية الولاية من بعده، لأنَّه مطَّهر من الذنب والخطيئة، وبالمحصلة فأنَّه يتَّحد مع مفهوم العصمة وبهذا لايمكن الركون إلى احد بعد الرسول الأعظم إلا إليه لبراءته من الخطأ أو الزلل، والأحكم هو الأوجب بالتباع عقلاً ومنطقاً.

٢- وجد الباحث أنَّ الآية التي نصت على ولاية الله سبحانه ابتداءً ورسوله تباعاً قد أثبتت في الوقت نفسه ولاية الإمام علي (عليه السلام) بوصفها أصلا من أصول تكامل الولاية التي لاتتم إلا باصولها الثلاثة، وقد جرى التنصيص على ولاية الإمام بحيثية أسلوبية غاية في الروعة؛ إذ وظَّف سبحانه الحال (وهم راكعون) شرطاً بيانياً لتشخيص مدلول العموم في عبارة (الذين امنوا)، والذي أعان على ذلك سند سبب نزول الآية وداعي ايجاد النص؛ اذ اثبت مقتضى نزول النص أنَّ الذي تصدق وهو راكع هو الإمام علي لا غير.

٣- وقف الباحث على سمة مشتركة تتفق فيها النصوص التي أثبتت أحقية الإمام في بيعة الغدير هي أنَّ جميع تلك النصوص قد أعانت أسبابُ نزولها على بيان مراد ولاية الإمام منها، ونحسب أنَّ داعي سبب النزول يعد حدثاً عينياً يقوي الإيمان بمضمون النص والركون إليه باعتبار أنَّ المتلقي وقتذاك قد شَهدَ مطلبَ النص وفهمَ دلالاته تشخيصاً وعقلاً، وعليه لا مجال من التملص من الدلالة التي ينتجها النص لمتلقيه؛ بل لامناص من القول بأحقية ما تحدث به النص قناعةً وإقراراً، وتأسيساً على هذا الملحظ يمكن أن نقول إنَّ سبب النزول يسهم بفاعلية عالية في توثيق معنى النص وعرض المراد منه باستدلالات واقعية ومعاشه، وبهذا نصل إلى رضى ينص على أنَّ معرفة دواعي النزول لا ترتبط بايضاح الجانب التفسيري للآية الكريمة

فحسب، بل إنَّ لها من الأهمية بمكان ما يدعو إلى أن يؤسس عليها معتقداً دينياً راسخاً له أثره في تكامل حكم السماء ومنح سمة الديمومة لإرادة الذات الإلهية على البشرية؛ وبهذا لا مجال لمن قال بعدم جدوى الركون إلى أسباب نزول النص لفهم ذلك النص وان هذه الأسباب منافعها جانبية ونسبية لا أهمية من القول بها في مدار البيان التفسيري للآية الكريمة[٥٠].

٤- وجد الباحث أنَّ من إشارات التعبير القرآني عن إلى الإمام علي (عليه السلام) هو الإشارة إليه بالنعمة وذلك في قوله تعالى تحديداً ((وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ))؛ إذ دلالة التحدث بنعمة الله هنا هي التبشير بالإمام علي ولياً للمسلمين بعد الرسول الأعظم، ويبدو أنَّ لهذا المضمون رابطاً بداعي نزول النص سورة الضحى؛ لأنَّ سبب النزول هو حزن الرسول الشديد لداعي تأخُّر الوحي وخشيته على الإسلام؛ لذا هبط النص مُبشِّراً للرسول ومؤيداً له من الله سبحانه بمساندة الإمام (عليه السلام) فهو النعمة التي سيحدث بها الرسول مستقبلاً، فضلاً عن أنَّ ثمة ترميزاً إشارياً لولاية الإمام كامنٌ في القسمين في صدر السورة ابتداءً.

وبالمآل نقول إذا كان ثمة إيمان بأنَّ النص القرآني هو الفيصل الأصل والمنطق الحاسم لما هو مختلف فيه؛ فإنَّ القراءة التحليلية للنصوص القرآنية تثبت بدلالاتها – من دون جهد كبير- أنَّ الإمام علي (عليه السلام) هو الولي والأولى بعد الرسول بقيادة الإسلام إلى الحق والنجاة وهو الاوفق على وجه الإطلاق اعتقاداً وواقعاً وصفات لبناء الانموذج الاسمى للإنسانية ذلك الأنموذج الذي تأسست عليه المعجزة السماء الدائمة منذ لحظة صدروها من الذات الإلهية والى ما لا نهاية له البتة، من هنا يثبت لدينا أنَّ بيعة الغدير إنما هي حق طبيعي ومنطق عادل في توليه الإمام بعد الرسول الأعظم .

---

[٥٠] ينظر:الدهلوي: الفوز الكبير في اصول التفسير: ٦٠-٦١، وسالم شبيب بدوي: البحث القرآني عند السيد محمد الصدر: ١٦١ وما بعدها.

ثبت المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**
- اسماعيل حقي البروسوي: روح البيان، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، د.ت.
- الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة دار الكتاب العربي – بيروت، ط٤ ، ١٤٠٥هـ.
- الالوسي: ابو الفضل شهاب الدين محمود(ت١٢٧٠هـ): روح المعاني، تحقيق: محمد السيد الجليند، مطبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.
- الباحث: : قراءة دلالية في محذوف سورة الضحى (بحث منشور)، مجلة دراسات نجفية، تصدر عن مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة، العدد الرابع،٢٠٠٥م
- البحراني: السيد هاشم الحسيني: (ت ١١٠٧ هـ): البرهان في تفسير القرآن، مؤسسة البعثة – طهران ،ط١ ،١٤١٥هـ .
- البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل، د.مط.د.ت.
- البيضاوي: تفسير البيضاوي ، مطبعة دار الفكر – بيروت، د.ت.
- الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي: الجامع الصحيح، المشهور بـ (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، مطبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ت.
- الحائري: مير سيد علي الطهراني(ت١٣٤٠هـ): مقتنيات الدرر، مطبعة دار الكتب الاسلامية – طهران، ١٣٣٧هـ.
- الحاكم: أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.
- ابن حنبل: احمد أبو عبدالله الشيباني: المسند، مؤسسة قرطبة – القاهرة، د.ت.
- الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد: سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، مطبعة دار الكتاب العربي – بيروت، ط١ ، ١٤٠٧ هـ.
- الدهلوي (ت١١٧٦هـ): الفوز الكبير في اصول التفسير، دار قتيبة للطباعة – بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٦ هـ): التفسير الكبير، مطبعة دار الكتب العلمية – بيروت،١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
- الزمخشري: ابو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ): الكشاف عن حقائق التنزيل، ضبطه وصححه: عبد الرزاق المهدي، مطبعة دار احياء التراث العربي – بيروت، ، ط٢، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

- سالم شبيب بدوي: البحث القرآني عند السيد محمد الصدر، مطبعة المعمورة، مركز الدراسات التخصصية في فكر السييد محمد الصدر (قدس سره)، ط١، ١٤٣٠هـ.
- ابن السراج: أبو بكر محمد بن سهل: الاصول في النحو، تحقيق : د.عبد الحسين الفتلي،مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨م.
- ابو السعود: محمد بن محمد العمادي: ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والمشهور بـ (تفسير ابي السعود)، مطبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت،د.ت.
- شبر : السيد عبد الله (ت ١٢٤٢ هـ): الجوهر الثمين ، مطبعة الكويت – مكتبة الالفين،ط١ ، ١٤٠٧ هـ .
- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠ هـ):فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، د.مط، د.ت.
- الشيرازي: ناصر مكارم: الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ط١، ١٤١٣هـ .
- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب : المعجم الكبير، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي،مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠هـ): جامع البيان في تأويل آي القرآن المشهور باسم (تفسير الطبري) ،دار الفكر – بيروت – لبنان، ١٤٠٥هـ.
- الطوسي : ابو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠ هـ): التبيان في تفسير القرآن، تحقيق : احمد حبيب قصير العاملي ، مطبعة قم – مكتبة الإعلام الإسلامي،ط١ ،١٣٧٩ هـ.
- ابن عاشور: محمد بن طاهر: التحرير والتنوير المعروف بـ(تفسير ابن عاشور التونسي)، مؤسسة التاريخ، د.ت.
- ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني: شرح ابن عقيل، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - دمشق، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م.
- العكبري : أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله: اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق : غازي مختار طليمات، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥م.
- الفيض الكاشاني: المولى محسن (ت١٠٩١هـ): الصافي في تفسير كلام الله، دار المرتضى للنشر – مشهد ، ط١ د.ت.
- القرطبي : محمد بن احمد بن ابي بكر (ت ٦٧١ هـ): الجامع لاحكام القرآن المعروف بـ (تفسير القرطبي)، تحقيق : احمد عبد العليم البردوني، مطبعة دار الشعب- القاهرة ، ط٢ ، ١٣٧٢ هـ.

- ابن كثير: ابو الفداء اسماعيل بن عمر الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم المشهور بـ(تفسير ابن كثير)، مطبعة دار الفكر – بيروت، ١٤٠١هـ
- محمد باقر الصدر:المدرسة القرآنية، مطبعة السرور، ط١، ٢٠٠٤م.
- محمد بن محمد رضا المشهدي: كنز الدقائق وبحر الغرائب، تحقيق: حسين دركاهي، تهران، ط١، ١٣٤٨هـ.
- محمد علي الرضائي: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، المطبعة صدف – ايران، ١٤٢٦ق – ١٣٨٣ش.
- مسلم: ابو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار احياء التراث العربي – بيروت، د.ت.
- مرتضى الكاشاني: نور الدين محمد (ت١١١٥هـ): المعين، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي – قم، ط١، د.ت.
- مغنية: محمد جواد (ت١٤٠٠هـ): الكاشف، مطبعة دار العلم للملايين – بيروت، ط٣،
- ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ): لسان العرب، مطبعة دار صادر للطباعة و النشر، بيروت – لبنان، ط١، د.ت.